العلاقة بين الأثنوغرافيا والأثنولوجيا والأنثروبولوجيا:

يتفق أغلب الباحثين الاجتماعيين على أنّ العلاقة بين الأنثروبولوجيا والأثنولوجيا والإثنوغرافيا هي علاقة معرفية تكاملية وعضوية يصعب فصل الواحدة عن الأخرى أحيانا حيث أنّها لا تشكل ثلاثة علوم مختلفة بل ثلاث مراحل متتابعة وبشكل أدق ثلاثة تصورات مختلفة لبحث واحد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فالمعارف الثلاث تؤدي إلى بعضهم البعض في كثير من الدراسات الّتي تبدأ إثنوغرافيا وتنمو إثنولوجيا لتصل إلى ذروة المساءلة الأنثروبولوجية.

ظهرت كلمة إثنوغرافيا للمرة الأولى عام 1772 لدى المؤرخ الألماني سلاتزر (Schlazer) لكي تعرف عن منهج ليني[1] (Lunnéen) لدراسة تاريخ الشعوب الخاص، وفي الفرنسية يظهر مصطلح إثنولوجيا (Ethnologie) عام 1787 لأول مرة في كتاب شافان (Chavannes) "دراسة عن التربية الفكرية من شروع لعلم جديد".

كما سبق أن عرفنا أنّ علم الإثنوغرافيا والإثنولوجيا أتيا من أصلين يونانيين وكلا العلمين يقوم بدراسة الثقافات الإنسانية، غير أنّ الإثنوغرافيا هي علم وصفي صرف، إذ يقوم بتصوير لثقافة الشعب ووصفها وبيان ما يسودها من نظم وعادات وتقاليد، دون الدخول في تحليل هذه المعلومات وإيجاد الصلة بينها وبين بعضها بعض، فمهمته أشبه شيء بآلة التصوير، إذ ينقل صورة مضبوطة أمينة لما يسود الشعوب المدروسة من ثقافات وحضارات بلا زيادة ولا نقصان، ثم يأتي علم الإثنولوجيا فيحلل هذه" المادة الخام" التي جمعها علم الإثنوغرافيا، ويصنفها ويبوبها ويوجد العلاقات بينها حتى يصل إلى الكشف عن المبادئ العامة، أو القواعد والقوانين الّتي تخضع لها هذه الظواهر، ويصل ما بين هذه المبادئ من جهة والمبادئ العامة المعروفة عند علماء الإنسان من جهة أخرى، ويقوم بما يتبع ذلك من المنهج العلمي المعروف من فرض الفروض وإجراء الاختبارات الّتي تثبت صحة تلك الفروض أو خطأها.

هذا يعني أنّ الأهداف النهائية للعالم الأثنولوجي، هي في الأساس محاولة فهم كيف تعمل المجتمعات والثقافات؟ وكيف ولماذا تتغير الثقافات؟ كما يحاول أن يتوصل إلى تعميمات معينة أو "قوانين" بحسب المصطلح الدارج للمفهوم، لتساعده في التنبؤ باتجاه سير الأحداث، بقصد التحكم به في النهاية.

---

[1] **منهج ليني:** نسبة إلى عالم الطبيعة السويدي كارل فون ليني (Carl Von Linné) الّذي قام بتصنيف لأنواع النبات والحيوان من خلال تحديد مزدوج يتميز فيه الكائن الحي بنوعه وجنسه.

فاذا كان القول بأنّ الأثنولوجيا تدرس الظواهر الثقافية دراسة رأسية، أي دراسة مقارنة زمانية تاريخية لثقافات الماضي، مع متابعة دراسة تلك الثقافات وتطورها ومقارنتها عبر التاريخ، فإنّ الأثنوغرافيا تدرس الظواهر الثقافية دراسة أفقية محددة المكان، وهكذا تكون الأثنولوجيا دراسة مقارنة في الزمان، بينما تكون الأثنوغرافيا دراسة مقارنة في المكان.

أما الأنثروبولوجيا فهي تشكل المحطة الأخيرة في هذه المسيرة، فهي تشكل في نهاية الأمر منهجا يسعى إلى تجميع المعرفة بالإنسان من كافة الجوانب وذلك بهدف تقديم فهم متكامل ومترابط عن الإنسان ونتاجه الحضاري، في الماضي والحاضر، ومن ثم يكون لها قدرة على استقراء أنماط الحياة المستقبلية... وإبراز الكيفية الّتي ينظم بها الأفراد والجماعات وسائل معيشتهم والمحافظة على بقائهم. من خلال هذا الطرح المعرفي والموضوعاتي، نشير إلى أنّ المسيرة الإثنوغرافية والأثنولوجية، الأنثروبولوجية تتلخص فيما يلي:

- المحطة الأولى: الاثنوغرافيا: الرصد والشرح والوصف والتفسير.
- المحطة الثانية: الاثنولوجيا: التحليل والمقاربة والتصنيف.
- المحطة الثالثة: الأنثروبولوجيا: استنباط القواعد والقوانين والأنساق.

قد يستعين الباحث الأنثروبولوجي بالوصف والتصوير اللذين ينجزهما الباحث الإثنوغرافي، كما قد يستعين أيضا بما توصل إليه الباحث الإثنولوجي، من تحديد لخصوصيات الموضوع وتصنيفاته له، فهو يستعين بكل هذه الانجازات مضيفا لها أشياء أخرى تتعدى الوصف والتحليل الإثنوغرافي والإثنولوجي، وذلك بهدف صياغة قضايا تتعلق بالظروف الاجتماعية في وجود الإنسان، فضلا عن تحقيق تلك القضايا الّتي تكون (قوانين الإستاتيك الاجتماعية) أو تتعلق بمظاهر الانتظام والأنساق في عملية التغيير الاجتماعي فتكون (قوانين الديناميكا الاجتماعية).

كما يجب الإشارة إلى أنّ مصطلح الأثنوغرافيا في بريطانيا يعني البحوث الوصفية والتحليلية الّتي قام بها علماء الأنثروبولوجيا البريطانيون حول الشعوب والأقوام البدائية الّتي درسوها دراسة ميدانية، وبالرغم من أنّ الأثنوغرافي يهتم بالدراسة الوصفية للمجتمعات البدائية والأنثروبولوجي الاجتماعي يهتم بالتحليل البنائي أو التركيبي للمجتمعات البدائية، فإنّ هناك ارتباطا وتداخلا وثيقا بين هذين العلمين بخصوص الدراسات العلمية الّتي يقومان بها. غير أنّه في الولايات المتحدة الأمريكية لا توجد هناك علاقة وثيقة بين علم الأثنوغرافيا وعلم الأنثروبولوجيا الاجتماعي، بل توجد علاقة مرتبطة بين علم الأثنوغرافيا والأثنولوجيا،

فالعالم **هيرز كوفنتر** يرى في كتابه "**الإنسان وأعماله**" بأنّ الاثنوغرافي هو وصف للحضارات وبحث مشاكل النظرية المتعلقة بتحليل العادات البشرية للمجتمعات الإنسانية المتباينة.

والإثنوغرافيا من أقدم فروع المعرفة في علم الأنثروبولوجيا عندما قام الأوروبيون بوصف القبائل والشعوب المحلية في أمريكا وإفريقيا وأستراليا وآسيا، حيث وصفوا أدواتهم وعاداتهم وتقاليدهم وكلّ ما يتصل بثقافاتهم المادية المختلفة، وسرعان ما تبنى الأنثروبولوجيون هذه المعلومات واستخدموها في دراساتهم لتطوير المجتمع البشري، أمّا في علم الآثار فقد استخدمت هذه المعلومات من المجتمعات البدائية والبسيطة والتقليدية لنماذج لمجتمعات ما قبل التاريخ والتاريخ القديم، وذلك عن طريق عقد المقارنات البسيطة وحتى أسماء ووظائف الأدوات الّتي توجد في المواقع الأثرية أخذت من ما هو معروف لدى الشعوب البسيطة الّتي درسها ووصفها الأثنوغرافيون، وهكذا فإنّ استخدام الأثنوغرافيا في الآثار قديم قدم العلم نفسه.